التراث والكتابة التاريخية

إطلالة على العلاقة من خلال المقدمة لإبن خلدون (732 هـ- 808هـ/1332م-1406م)

ا. محمد بلاغ

إن التراث والكتابة التاريخية يشكلان المادة التي تبني فهمنا للحاضر، فالأول يمثل المادة الأولية والثاني يمثل إنتاج صناعة المؤرخ، وبحكم المهمه الحضارية الملقاة على عاتقه، لايمكنه الاستغناء عن التراث ولا عن صناعته، ومن ذلك تطرح لنا ضرورة فهم العلاقة بين هذه الأطراف.

كما أن طرحنا المقدمة كنموذج لفهم العلاقة بين التراث والكتابة التاريخية يخضع لعدة اعتبارات منها أننا نعيش الذكرى الثالثة بعد المائة السادسة لوفاة العلامة ابن خلدون[1]، واعتماده

في "المقدمة" على التراث المكتوب، كما أعطى مواصفات الكتابة التاريخية التي تنبغي في تقديره أن تصل إلى تلك الغاية البارزة من علم العمران البشري الغزير الفائدة[2]، والاعتبار الثالث وهو نقص الدراسات على الأقل في محيطنا الثقافي التي تتناول أثر التراث في كتابات ابن خلدون.

ونظرا لهذه الأهمية فالتعريف بالتراث ونقده وتبليغه للمتلقي أي كان بصفة أكاديمية، تعد إحدى أوجه المحافضة عليه وتلية من آليات الحماية له، وتثمينا لمسعى الحماية والتأمين له والتي تقوم بها بدرجة كبرى علوم أخرى. وبالتالي فالإشكالية المطروحة إلى أي مدى تتجاوب الكتابة التاريخية مع التراث؟ وهل يمكن اعتبار العلاقة علاقة استغراق أم وقفة تأمل واستنباط؟

من هنا سنحاولنا معرفة طبيعة تلك العلاقة التي تربط الكتابة التاريخية وأقصد هنا الكتابة الأكاديمية بالتراث، مرورا بمناقشة مفهوم التراث والكتابة التاريخية، كما سنطرح قضايا علاقة التراث والكتابة التاريخية من منظور خلدوني اعتمادا على المقدمة، فضلا عن اشكالية التلقي عند الجمهور.

مفهوم التراث والكتابة التاريخية:

أ -مفهوم التراث :التراث من الناحية اللغوية، مصدر للفعل ورث يرث إرثا وميراثا، ومن ذلك قوله تعالى) وتأكلون التراث أكلاً لماً [3](، وفي تفسير الجلالين تفيد كلمة التراث كل ما تركه الميث لورثته، ثم أصبحت تدل على كل مخلفات البشر الحسية والمعنوية.

ومن الناحية الاصطلاحية: إن المصادر التي وقفنا عليها تفق على أن التراث هو الجانب الموروث اجتماعيا من الثقافة التي تشكل وعينا بالحاضر، وبذلك يدخل ضمن هذا الإطار كل ما تركة السلف للخلف، سواء كان شواهد مادية ملموسة من مبان وأدوات مثلا، أو معنويا من آداب وعلوم وفنون وأفكار وعقائد وسلوك .[4]ويصنف الباحث نبيل علقم التراث إلى تراث رسمي (مكتوب)، وشعبي وهو المتوارث شفويا مجهول المنتج، ومنه التراث المادي والمعنوي والقولي والفني والمعرفي والحركي.[5]

كما يشير الباحث محمد أمين العالم إلى (أن التراث هو ماضي أي سابق لوجودنا، ولذلك فحقيقته في ذاتها مشروطة بمدي معرفتنا بها وطبيعة موقفي منها وتوظيفي لها [6]، أي أن التراث يبقى أثر حتى وإن بقيت معالمه ماثلة أمامنا على نحو مادي أو معنوي)، ومن ذلك نستنتج أن التراث يبقى عديم الأهمية إذا لم يكن له حضور ومتفاعل مع حاضرنا. فالتراث في تقديره هو قراءتنا له وموقفنا منه وتوظيفنا له، هذا الموقف الذي يعد موقف من الحاضر لا موقف من الماضي .

ونشير أغلب الدراسات إلى أهمية التراث في بناء النسق المعرفي للحاضر وفهمه، لأنه وببساطة يعطي للمجتمع هويته، التي تمكنه من الاستمرارية، في ظل عالم متغير ومضطرب. كما أن عملية "إحياء التراث" تضيف للمجتمع عمراً جديداً، وتوسع له أفق التصور وتزيده الثقة في الأنا الجمعي. فهاهو القرآن الكريم المنزل يصرح بأهمية الوقوف على أنباء وأخبار الرسل لهدف واضح، وهو حتى يقوى بها قلب النبي(ص) للقيام بأعباء الرسالة، كما أن في قصصهم بيان الحق، وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون بالله ورسوله، قال تعالى{ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.[7]{ يدفع أصحاب العقول إلى أخذ العبرة والحكمة من التاريخ، قال تعالى}:قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ [8]{ وقال}:لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.[9]{

وإذا رجعنا إلى المقدمة نجد ابن خلدون لايذكر عبارة التراث بلفظها، وإنما نجد عبارات وكلمات ذالة على معنى التراث المعنوي، مثل: الأخبار، وكل ما وصلنا من تدوين عن الأمم السابقة لقوله) :وأدوها إلينا كما سمعوها[10](، كما يردد في المقدمة عدد من الأفعال الدالة على اطلاعه على التراث الشفوي والمكتوب مثل: كلمة قال [11] ويقال، بلغنا، إنك تسمع في كتب الحكماء، حكى المؤرخون، وأخبرني فلان وكلمات تدل على استنتاجاته الخاصة مثل: اعلم وهي كثيرة التردد في المقدمة. وغيرها كثير مما يدل أن ابن خلدون لم يصل إلى نظريته في علم الاجتماع الإنساني والعمران الإنساني الذي يعتبره) مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة [12](دون سعة اطلاع على التراث التاريخي ومعاينة ثاقبه لعصره المضطرب.

ب -الكتابة التاريخية :قبل ضبط مفهوم الكتابة التاريخية، التي هي صميم صناعة المؤرخ،علينا اولاً تحديد مفهوم التاريخ.

إذا طالعنا المصادرالتاريخية تعطينا عدة مفاهيم للتاريخ [13]، لكنها تكاد تتفق في المعنى بشكل عام، وعليه سوف لن نتطرق بإسهاب إلى هذه التعاريف وإنما سنركز على مفهوم ابن خلدون للتاريخ والكتابة التاريخية. إذ يطرز ديباجة المقدمة بـ" مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيئ من أسبابها ."

يقول ابن خلدون في ذلك):إعلم أ فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم وأخلاقهم والأنبياء وسيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فقائدة الإقتداء ... فهو محتاج في ذلك إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والغلط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق .[14](

إذا وقفنا على هذا التعريف نكتشف أنه يرتقي إلى مستوى الفهم الحالي للتاريخ والكتابة التاريخية، وذلك لضبطه منهجية البحث التاريخي، التي ترتكز على البحث أو جمع المادة من التراث التاريخي والعلمي، وهو ماعبرعنه ابن خلدون بالمآخذ والمعارف المتنوعة ، وتأويل الوقائع وفق قاعدة حسن النظر والتثبت التي تأخذ بعين الاعتبار الإبتعاد عن النقل الآلي من التراث، والمقارنة والقياس وطبيعة العمران، ثم معرفة أصول الكتابة) ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم ...فأنشأت في التاريخ كتاباً[15](، وأي محاولة للكتابة التاريخية تخرج في منهجيتها عن هذا الإطار تدخل في نطاق السرد التاريخي أو الرواية التاريخية.

لذلك يرى ابن خلدون في المقدمة ان التراث يحمل الكثير من الغلط والوهم) وكثيرا ما وقع المؤرخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا[16](، مثل ما نقله المسعودي عن حيوش بني إسرائيل، وما ذكره آخرون عن أخبار التبابعة ملوك اليمن والبربر من بلاد المغرب[17]، وما ينقله المؤرخون في سبب نكبة البرامكة من قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحي بن خالد مولاه